الحياة الثقافية
صفحة تعنى بالآداب والفنون والتراث
السبت 2026/5/2 - العدد 10921
Saturday 2 May 2026 - No. 10921
للمراسلات: culture@alhaya.ps

مهيب البرغوثي

حسين البرغوثي.. أربعة وعشرون عاما على الغياب وحضور لا ينطفئ

في الذكرى الرابعة والعشرين لرحيل الشاعر والمفكر الفلسطيني حسين البرغوثي، لا نستعيد مجرد اسم أدبي بارز، بل نستحضر تجربة إنسانية وفكرية نادرة، استطاعت أن تفتح في الثقافة الفلسطينية بابا مختلفا على الأسئلة الكبرى: الوجود، والمعنى، والحرية، والموت، والعلاقة الملتبسة بين الإنسان والعالم. حسين البرغوثي من أولئك الكتاب الذين لا يمرون مرورا عابرا، لأنهم يتركون في اللغة أثرا يشبه الندبة الجميلة، ويغادرون تاركين وراءهم أسئلة كثيرة.

تميز البرغوثي بكونه شاعرا يفكر، ومفكرا يكتب الشعر. وهذه الثنائية النادرة جعلت مشروعه الإبداعي يتجاوز التصنيفات التقليدية بين الأدب والفلسفة. ففي نصوصه، لا نجد القصيدة منفصلة عن التأمل، ولا الفكرة جافة أو مجردة، بل تتجسد في صور حسية نابضة بالحياة. كان يرى أن اللغة ليست أداة وصف فقط، بل وسيلة كشف، وأن الكتابة الحقيقية لا تعيد إنتاج العالم، بل تعيد اكتشافه وترتيبه من الداخل.

في أعماله، وخاصة "الضوء الأزرق"، تتجلى رؤيته الفلسفية بوضوح. فالكتاب ليس سيرة ذاتية بالمعنى المألوف، بل رحلة في طبقات الذات، ومحاولة لفهم الجسد والروح والمرض والزمن. حين واجه السرطان، لم يتعامل معه بوصفه حدثا طبيا فحسب، بل بوصفه امتحانا وجوديا يكشف هشاشة الإنسان وعلاقته بالموت. هنا يتحول الألم إلى معرفة، والخوف إلى بصيرة، والجسد إلى نص مفتوح على التأويل كما قال في "ساكون بين اللوز".

كان حسين البرغوثي مشغولا بفكرة الحرية، لكن ليس بمعناها السياسي المباشر فقط، رغم انتمائه العميق للقضية الفلسطينية، بل بمعناها الأوسع: حرية الوعي من الأوهام، وحرية الروح من القوالب الجاهزة، وحرية الإنسان من الخضوع للتفسيرات المعلبة. لذلك جاءت كتاباته متمردة على اللغة المستهلكة، وعلى الأفكار المستقرة، وعلى كل يقين نهائي. لقد آمن أن الشك ليس ضعفا، بل طريق إلى المعرفة.

ومن أبرز ما يميز عالمه الفكري نظرته إلى الطبيعة بوصفها كائنا حيا لا مجرد خلفية صامتة. الجبل، والشجر، والريح، والضوء، كلها عناصر حاضرة في نصوصه كرموز وذوات تشارك الإنسان مصيره. لقد كان يرى في الطبيعة نوعا من الحكمة الأولى التي فقدها الإنسان الحديث وسط صخب المدينة والآلة. ولهذا بدت كتاباته أحيانا محاولة لاستعادة الانسجام القديم بين الإنسان والعالم.

أما الموت، ذلك الهاجس الثقيل، فلم يكن عنده نهاية سوداء بقدر ما كان سؤالا مفتوحا. لم يكتب عنه برعب تقليدي، بل بنوع من التأمل العميق الذي يحاول فهم معنى الفناء في حياة مؤقتة أصلا. كان يدرك أن الإنسان يعيش تحت ظل الموت منذ ولادته، لكن القيمة الحقيقية تكمن في أن يحول هذا الوعي إلى طاقة للمعنى، لا إلى استسلام.

بعد أربعة وعشرين عاما على رحيله، ما زال حسين البرغوثي حاضرا بقوة، لأن الكتابة التي تنبع من العمق لا يغيرها الزمن. لقد ترك لنا نموذج المثقف الحر، الذي لا يكرر السائد، ولا يساوم على قلقه المعرفي، ولا يخشى السير وحيدا في دروب المعرفة.

وفي زمن تتكاثر فيه الأصوات العابرة، يبقى صوته نادرا، شفافا، ومضيئا كذلك الضوء الأزرق،وساكون بين اللوز ،والضفة الثالثة للنهر ،والكثير من الدواوين الشعرية من بينها رؤيا،وليلة وتوبة، حسين البرغوثة حالة كونية استطاع ان يمر عبر ثقوب الزمن ويغير في مفهوم الفكر كما قال: "حرام على بني أدم أن ياتي ويذهب دون ان يترك أثر".

لقد ادرك حسين منذ تللحظة الاولى أن الخلاص الوحيد هو الادب فحاول ان يترك لنا شيء نستطيع من خلاله ان نسبل اغوارنا ترك لنا اهم ما كنب في النثر الفلسطيني في محاكاة الحياة والموت "حجر الورد" وكما قال عنه هو نص ما بعد حداثي ذهب حسين في رحلة الضوء الازرق وهو يتأمل ان نفهم ان النهاية ليس في الموت بل في حياة ليس كريمة.

السر في رؤية الصدع اللامرئي

(على هامش قراءة سأكون بين اللوز)

سمير اليوسف*

يكتب حسين البرغوثي في الصفحتين الرابعة والخامسة من "سأكون بين اللوز" [خطرت ببالي "ذاكرة المكان" هذه، وأنا واقف فوق الخرائب. غربا، في قمة جبل مغطى بغابات صنوبر وسرو وبلوط، تشع أضواء النيون من مستعمرة إسرائيلية .. أضواء باردة وكاشفة ومحاطة بأسلاك شائكة. وبدت المستعمرة معلقة في الفضاء، ربما بسبب الضوء، أيضا، ولم تلمس الأرض ولا التاريخ بعد.. وأنا واقف فوق الخرائب تلك، شعرت بفرق شاسع ما بين نوعين من "الضوء": القمر والنيون في المستعمرة. كان الأخير مرتبا ومهيمنا وحاد البياض، منتشرا حتى وراء الأسلك الشائكة التي تعزل كل مستوطنة عن محيطها، أشبه ما يكون بـ"رؤيا مسلحة" باحتلال بصري، ومعمار ضوئي لدولة تهذي حتى في منامها برؤى مسلحة بالنيون. وبدت المستعمرة كلها كتابا في علم النفس أيضا: في العلاقة ما بين "القوة و"الضوء". لم يدرس أحد بعد العلاقة ما بين القوة والضوء"] كلام حسين البرغوثي صحيح دون شك! لا أحد درس كيفية توظيف الضوء في خدمة الاستيطان المدني أو حتى العسكري. على الأرجح لأن لا أحد قد نظر إلى المستوطنات الإسرائيلية من هذه الزواية من قبل. لأن جل كتابنا العباقرة، حينما يجشمون أنفسهم عناء الكتابة عن الواقع المحيط بهم، فإنهم يكتفون بلغة الإدانة السياسية والأخلاقية. لأننا على حق، أو لأن الحق في صفنا، فهم يعتبرون من حقهم أيضا أن يكونوا كسالى فكريا. أن يتكاسلوا في توظيف الخيال الذي ينفذ إلى قلب الحقيقة أو استخدام ملكة التحليل النقدي. لأن حسين البرغوثي لم يبدد حياته في الكتابة الرمزية التي لا ترى سوى السطحي والمتداول (الكوفية والمفتاح والزعتر والزيتون .. إلخ). الرمزية التي استند إليها حسين البرغوثي هي التي تقرأ الوجود وكأنه نص لغوي، سواء بأساليب أصحاب المعارف الصوفية والباطنية أو السيميائية العلمانية [علم العلامات الذي يعتبر النص بمثابة بنية من العلامات اللغوية. والنص لا يقتصر على النص المكتوب وإنما مجمل الإنتاج الثقافي من فنون وسوى ذلك] استطاع البرغوثي أن يقرأ المشهد الجغرافي السياسي، الفلسطيني الإسرائيلي، كنص يتكون من علامات تتعلق بعلاقة الضوء بالأرض والتاريخ والسلطة السياسية.

يستأنف البرغوثي الكلام: [بدا لي بأنني أرى "ذاكرتين" معا: ذاكرة الأفاعي التي تزغرد وهي تطير وذاكرة من رؤى وأساطير تحلم بإبادة الأفاعي. (ألم يقل إسحق شامير، رئيس وزراء إسرائيل السابق، في الإنتفاضة السابقة، بأن العرب "أفاع"؟) وبين الذاكرتين، ذاكرة الضحية وجلادها، ما يشبه الوادي أو "الهوة" صدع عميق ما، وأنا واقف على على شفير هذا الصدع اللامرئي.]

لاحظ كيف قلب المؤلف المعنى الرمزي المتداول للأفاعي، باعتبارها رمز للغادر السام القاتل (العرب بحسب إسحاق شمير)، إلى رمز للكائنات التي تنتمي انتماء طبيعيا إلى الأرض والجغرافيا خاصة في مواجهة من لا ينتمي انتماء طبيعيا ["وبدت المستعمرة معلقة في الفضاء، ربما بسبب الضوء، أيضا، ولم تلمس الأرض ولا التاريخ بعد"] والذي يحاول أن يفرض

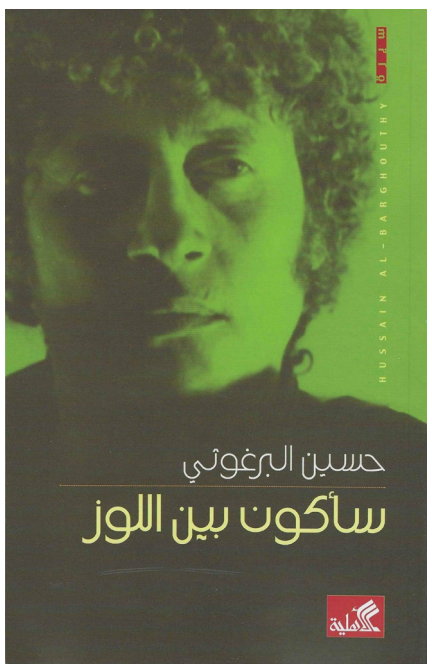

انتمائه بالقوة العسكرية السر في قدرة القارئ الذي يرى الصدع اللامرئي!

* صحفي وشاعر فلسطيني يعيش في لندن

الضحية التي تنتظر

في ذكرى سليم النفار

عثمان حسين*

أول ما يذكر اسم سليم النفار أمامي، يقفز إلي ذلك الحلم الغريب الذي لازمني طيلة أسابيع من بعد السابع من ديسمبر يوم استشهاده، حيث مازلت أتذكر حالة الرعب التي كان يعيشها وهو يبحث عني متنقلا من زاوية إلى أخرى ومن شارع إلى آخر، كان يبحث عني وأنا أراقبه وأتابع حالة القلق التي تبدو عليه. صحوت فجرا من النوم، وقلت لزوجتي سليم النفار في ورطة لا أعرف ما هي، لكنه في ضائقة.

اتصلت على سليم عبر الهاتف في ذلك النهار ولا من مجيب. بعد ساعات قليلة وصلني خبر إستشهاده، في مجزرة قاسية راح ضحيتها سليم وأخيه و أبناؤهما جميعا وكل من كان معه. كان التواصل مع سليم لا ينقطع على مدار العقدين الماضيين، عشرون عاما وتواصلنا لا ينقطع بحكم العلاقة الشخصية، وإرتباطنا في الأمانة العامة لإتحاد الكتاب الفلسطينيين والتداخل الوظيفي بيننا

كنا نلتقي في الإتحاد معظم أيام الأسبوع وأحيانا نلتقي بعد إتصال ليتأكد أنني بإنتظاره حيث يكون قد كتب قصيدة جديدة، ولا بد أن أسمعها ونناقشها سويا.

سليم النفار كتلة من التسامح والطيبة والمحبة بلا حدود، كان يأسرني بطيبته وتسامحه حين أبدو خشنا أحيانا في رد فعل ما، فأجد نفسي مدفوعا للتراجع أمام تسامحه وطيبته لقد سافرنا سويا إلى العديد من العواصم العربية في مهام عمل، وكان رفيقا صدوقا في مواقفه النبيلة، وما في جيبه ليس ملكه بل ملك الآخرين، كان كريما ينتمي إلى أصله الكريم.

لقد صدمني خبر رحيل سليم، ولم أتوقع رحيله هكذا، و فجأة، أصبح خبر رحيله حقيقة يتحدث عنها الآخرون

لم أستطع نعيه، ولا الحديث عنه، لقد تركت الأمر للآخرين من أصدقائه ومحبيه، حاولت مرارا الحديث عنه إلا انني لم أستطع. غادرنا سليم تاركا فجوة واضحة في المشهد الادبي الفلسطيني، كان سليم يملؤها بجدارة، قبل نكبة السابع من أكتوبر. وأعتقد لو أن سليما كتبت له النجاة، وما زال بيننا منتجا، لقدم الكثير في رصد وتدوين نكبتنا شعرا ومقالة وبكل الأشكال و الفنون الأخرى.

أصدر سليم النفار مجموعة شعرية في العام 2021 بعنوان حارس الإنتظار، وبعده بعام واحد فقط أصدرت مجموعتي حارس الضحية، وكنا دائما نمازح بعضنا، أنت حارس الإنتظار، وأنا حارس الضحية.

* شاعر فلسطين يغيش في غزة

الخيام.. مدينة الشعراء وقصيدة الجنوب الكبرى

شوقي بزيع

إذا كان التضافر الخلّاق للتاريخ والجغرافيا مع المعاناة القاسية والهوية القلقة، قد جعل من الجنوب اللبناني خزاناً للشعر يتعذر نضوبه، فإن ثمة بين جنباته حواضر ومدناً وبلدات بدت أكثر من سواها قادرة على رفد هذا الخزان بالقدر الأكبر من الشعراء والكتاب والمبدعين، كما هو حال النبطية ومرجعيون وبنت جبيل وصور وعيناتا وشقراء والخيام، على سبيل المثال لا الحصر. ومع أن كل حاضرة من الحواضر التي ذكرت، تستحق الاحتفاء بكتابها وشعرائها ومبدعيها؛ كل على حدة، فإن اختيار «الخيام» محوراً لهذه المقالة، لم يكن سببه التقليل من شأن المدن والحواضر الأخرى، بل لأنها بحكم موقعها الحساس، تتحمل مع كل حرب تقع، أكثر أشكال المواجهة مع الغزاة قسوةً وعنفاً، ولأنها تشكل على الدوام رأس حربة الدفاع عن الجذور وحراسة الهوية.

ولعل ما ينطبق على لبنان وجنوبه، بشأن التضاد المتعلق بنعمة الجغرافيا ونقمتها، إنما يجد في بلدة الخيام برهانه النموذجي وشاهده الأمثل. ذلك أن الثراء المشهديّ الذي أتاح للبلدة أن تطل على قمم جبل الشيخ ومنحدراته، كما على الجليل الفلسطيني، وعلى السهل الفسيح المسمى باسمها، وعلى جهات مرجعيون وقلعة الشقيف وبلدات الحدود، فضلاً عن وقوعها على هضبة عالية تشبه ظهر الفرَس، هو ما أمدّها بعدد غير قليل من المبدعين، وغذّى نصوص شعرائها بكل أشكال الاستعارات وضروب التخييل.

وإذا كان محرك البحث «ويكيبيديا»، قد عرّف الخيام بأنها البلدة التي «اشتهرت بسهلها وشعرائها ومعتقلها»، فإن أكثر ما يلفت في هذا التعريف، هو تمكّنه عبر مفردات ثلاث من العثور على هوية للبلدة، تجمع بين جماليات المكان، وجمالية التعبير عنه، وتكلفة جماله الباهظة. واللافت أن عدد الشعراء والمبدعين الذين تبرعمت مواهبهم فوق أرض الخيام، لا يقل أبداً عن عدد الينابيع التي تفتحت في كنف سهلها الفسيح، وبين هؤلاء عبد الحسين صادق وعبد الحسين عبد الله وسكنة العبد الله وحبيب صادق وكامل العبد الله ومحمد العبد الله وعصام العبد الله وحسن عبد الله، وكثر غيرهم. وحيث يجدر التنويه بأن المكان والنشأة المتقاسمين بين الشعراء المذكورين، لم يجعلا منهم نسخاً مكررة، ومتماثلة الأسلوب والرؤية إلى العالم. إلا أن ما جمعهم، على تفاوت المواهب والمستويات، هو وفاؤهم للمكان الأصلي الذي انبثقوا عنه. حتى إذا جذبهم بسحره المغوي بريق المدن، أو أجبرتهم الحروب المتعاقبة على النزوح باتجاه بيروت، ظلوا كما فعل الشريف الرضي، يتلفتون بالقلب نحو مساقط الحياة الأم، ويلأمون بالشعر والحنين المسافة الفاصلة بين مواطئ الجسد ومواطن الروح.

ومع أن التجارب الشعرية، المتباينة لغةً وأسلوباً، لكل من حسن ومحمد وعصام العبد الله، قد شكلت الأضلاع الثلاثة الأكثر تميزاً لمثلث الشعر «الخيامي»، إلا أن مقتضيات الوفاء والإنصاف، توجب التنويه بالتجربة الشعرية المبكرة لحبيب صادق، الذي حالت التزاماته النضالية والاجتماعية والثقافية المتنوعة دون متابعتها إلى نهاية الشوط. وإذا كان صادق قد استعاض عن كتابة الشعر بتأسيس «المجلس الثقافي للبنان الجنوبي»، وتعهُّد الشعراء والكتاب الجنوبيين بالرعاية والحدب والاهتمام، فإن ذلك لم يمنعه من إصدار عديد من المجموعات، التي حرص فيها على المزاوجة بين النسقين الخليلي والتفعيلي، وعلى حقن النصوص «الملتزمة» بشحنات متفاوتة من الغنائية الرومانسية والشجن العاطفي. وهو ما يبدو واضحاً في أبياته المغنّاة:

شدَّي عليكِ الجرح وانتصبي عبر الدجى رمحاً من اللهبِ
يا ساحة الأنواء كم عصفتْ فيها خيول الهول والرعُبِ
أهلوكِ لا سورٌ من الكذبِ أهلوكِ لا قنّاصةُ الرتبِ
صدّوا الرياح السودَ يحْفزهم جرح التراب وأنةُ العشُبِ

أما حسن عبد الله فقد بدت تجربته الشعرية مدينة لموهبة شديدة التوقد، كما لإصغاء عميق إلى كل ما ينمّ عنه تراب الخيام من عبق الروائح وهسيس الأصوات، وتنقّل الكائنات الحية بين باطن الأرض وغلافها الخارجي. لا بل إن ما منح صاحب «أذكر أنني أحببت» مكانته الإبداعية المرموقة، لم تكن ثقافته العالية وسعة اطّلاعه فحسب، بل إمعانه الدؤوب في التنقيب عن مناجم طفولته الغنية، التي أمدّته بقدر غير قليل من البساطة واالصفاء التعبيري والتبصر الدائم في كنه الأشياء. وإضافة إلى ذكائه الحاد وسخريته اللماحة، امتلك حُسن القدرة على تسييل الحواس الخمس، عبر نصوص رشيقة الجرْس وغنية بالصور والاستعارات والمفارقات المباغتة.

ورغم أن تجربة حسن عبد الله قد ذهبت بعيداً في تنوع أسئلتها وموضوعاتها، فإن معاناة الجنوب اللبناني، والخيام على وجه الخصوص، ظلت شغله الشاغل وحجر الزاوية في عديد من قصائده. وإذا كانت قصيدته «الدردارة»، التي أخذت اسمها من حوض مائي مترع بالخضرة عند أطراف بلدته، قد بدت درة أعماله، فلأنه استطاع أن يحوّلها إلى معلّقة حديثة، يختلط فيها الحنين مع الرغبات الأولية، والماضي مع الحاضر، والفراديس الوارفة للماضي مع جهنمات الحاضر وكوابيسه المتجددة. والخيام التي نبت فيها حسن مع أعراس العصافير، وصباحات التين، وزمن الهناءة اللازوردي، هي نفسها التي حوّلتها الطائرات المعادية ذات الاجتياح الغادر، إلى أثر بعد عين، ليقول في ذلك:

تأتي الطائراتُ وأرحلُ
الطائراتُ، ويثبتُ الولد اليتيمُ
وطابتي في الجوّ،
إني مائلٌ شرقاً
وقد أخذ الجنوب يصير مقبرةً بعيده

وحين كان حسن عبد الله يغادر بلدته الخيام ليحط رحاله في صيدا، عاصمة الجنوب اللبناني، كان محمد العبد الله، ذو القامة الباسقة والمنكبين العريضين والصوت الأجش، يواصل رحلته باتجاه بيروت، شأنه في ذلك شأن أقرانه الكثر من شعراء الجنوب وكتابه وفنانيه، الذين رأوا في «لؤلؤة المتوسط» كل ما يحلمون بتحقيقه من آمال، وما يجيش في دواخلهم من رغبات. وحيث بدا اصطدام ذلك الجيل الأعزل، إلا من براءته الريفية وطموحه الرومانسي، بإسمنت المدينة الأصم وأبراجها الشاهقة، أمراً لا بد من حدوثه، فقد استطاع محمد العبد الله، بما يملكه من موهبة فطرية وتحصيل ثقافي مبكر، أن يعبّر في قصيدته الفريدة «بيروت» عن مكابدات ذلك الجيل وهواجسه وأسئلته المؤرقة. لكن سوء التفاهم المرير الذي حكم العلاقة بين المدينة ومثقفي الأطراف، سرعان ما أخلى مكانه لعلاقة أقل توتراً، زادها وثوقاً شغف الوافدين بالمغامرة ورغبتهم في تحقيق الذات. على أن الانغماس في العالم الجديد، قد ولّد لدى الشعراء الهابطين من القرى، شعوراً بالذنب منبعه الخشية من تحول الجنوب إلى أضغاث مبهمة ومشرفة على التلاشي. ومرة أخرى كان صاحب «مصرع دون كيشوت» يؤرّخ لغروب العالم الريفي، ويهتف بحرقة بالغة:

الدم الزراعي ينزف عشباً أخيراً
الدم الزراعي ماتْ
انتهى زمن الذكريات
رأيت دماءً بفصلين:
فصل تراجع نحو الحكايه
وفصل يصير إلى لا نهايه

وإذ يصعب أخيراً تناول شعراء الخيام الكثر، كلٌّ على حدة، إلا أنه من غير الجائز إسقاط تجربة عصام العبد الله من المشهد الشعري الخيامي. صحيح أن ما كتبه الشاعر من قصائد ومقطوعات، قد اقتصر على مجموعات ثلاث مكتوبة بالمحكية اللبنانية، إلا أن الشاعر القادم من الفصحى، استطاع بتمكّن لافت، أن يدمغ ببصمته الخاصة وأسلوبه الطريف، مجمل النصوص التي كتبها.

ومع أن صاحب «سطر النمل» كان عاشقاً لبيروت، بشوارعها ومكتباتها وبحرها ومقاهي رصيفها، إلا أنه ظل ملفوحاً كأترابه الكثر، بكل ما تحمله إليه رياح الجنوب من مسرّات الطفولة، وقلامات الألم، وأزمنة الوداعة المنقضية، حتى إذا التفت كغيره باتجاه الجنوب المثقل بالمكابدات، والذي حوّله النأي والصمود الدامي إلى ما يشبه الأسطورة، كتب عصام عبد الله قائلاً:

كانْ في جبلْ إسمو جبلْ عاملْ
وكانِ الوقتْ قبلِ العصرْ بِشوَيْ
بكّيرْ تيْصلّي
تْهَدّدْ عَ كرسي إسْمها الدْيامْ
كتْفو الشْمالِ ارتاحْ عَ الجولانْ
كتْفو اليمين ارتاحْ عَا نيسانْ
إسْمو جبلْ عاملْ التجارب الشعرية لكل من حسن ومحمد وعصام العبد الله شكّلت الأضلاع الثلاثة الأكثر تميزاً لمثلث الشعر الخيامي.

عن "الشرق الأوسط"

♦♦♦♦♦

سليم النفار

فيا طير الشوق لا ترك
إلى ماض بليد
فلا تحيا حياة بعد موت طويل
دع الأفكار ينجبها تأملك
ويعليها اليراع
فلا شمسا تغيب
إذا شدت قباب، ومد الشراع
هي الأشياء نصنعها
ونرفعها
وما في العقل يجعلها قلاعا
لا تضاهيها القلاع
هنا قد وعينا الأرض نزرعها
ونأكلها، إذا ساد اليباب
هنا قد غسلنا الصبح من أفلاذنا،
وأعطينا المدى بابا عزيزا؛
لا يجانبه الخراب
إذن: لا تندبي حظا
ولا تعلي عويلا كلما سد باب
فإن الوقت لا يعلو دعاء
ولا يدنو إلى ميقاته، بتأويل الحكايا
أو بما كورت جداتنا تحت الوسائد
تهاليل يقاربها الحجاب
تحاصرني
تحاصرك
تحاصرنا